

رقم الدرس ٣

الجمعة ٢١-١١-١٤٤٧هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

المُلَقَّاة بِمَسْجِدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المُدَرِّس بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

وَعُضُو هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

وَمُفَوِّضِ الْإِفْتَاءِ بِمَنْطِقَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّرُوسُ لم تُراجَع من فَضِيلَةِ الشَّيْخ - حَفَظَهُ اللَّهُ -.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قال الإمام المصنّف -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: [وقوله: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآيات.

قال ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-: ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}، إِلَى قَوْلِهِ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} الْآيَةَ].

الشرح:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْإِثْمَانِ الْكَامِلَانِ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَخَيْرَةِ اللَّهِ مِنَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى سَبِيلِهِ وَنَهَجَهُ وَاسْتَقْبَسَتْهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَبَيَّنَّا فِي الْمَجَسِ الْمَاضِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ تَعَلَّقَتْ بِبَيَانِ الْحَرَّمَاتِ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَثَابَةِ التَّثْمَةِ لِلآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ ذَكَرَهَا الْإِمَامُ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَبَيَّنَ -رَحِمَهُ اللَّهُ- بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ آيَةِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ أَوْجِبَ الْوَاجِبَاتِ هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ، وَأَنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ وَأَشَدَّ الْحَرَّمَاتِ هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ اللَّهُ التَّوْحِيدَ وَالْأَمْرَ بِهِ وَفَرْضَهُ وَإِزَامَ الْعِبَادَةِ بِهِ فِي أَوَّلِ الْحَقُوقِ كَمَا تَقَدَّمَ مَعْنَى فِي قَوْلِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، فَقَدَّمَهُ عَلَى سَائِرِ الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ.

وَهُنَا قَالَ: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، فَقَدَّمَهُ عَلَى جَمِيعِ الْحَرَّمَاتِ، أَيْ قَدَّمَ الشِّرْكَ الَّذِي هُوَ ضِدُّ التَّوْحِيدِ عَلَى جَمِيعِ الْحَرَّمَاتِ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ هُوَ التَّوْحِيدُ، وَأَنَّ أَعْظَمَ الْحَرَّمَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْمَعَاصِي هُوَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَهَذَا تَنْبِيهٌُ مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لِعِبَادِهِ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْتَنُوا بِالْأَمْرَيْنِ:

أَنْ يَعْتَنُوا بِحَقِّ اللَّهِ فِي تَوْحِيدِهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَنْ يَعْتَنُوا بِتَنْزِيهِهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عَنِ الشِّرْكِ بِهِ.

وَمِنْ هُنَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُوَحِّدًا إِلَّا إِذَا جَمَعَ الْأَمْرَيْنِ:

جمع القيام بحق الله بتوحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

وكذلك أيضًا يبرأ أن يكونَ لله شريكٌ في وحدانيته، في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته. وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنه يدلُّ على عظم هذا الحق العظيم، وهو توحيدُ الله -عزَّ وجلَّ-؛ حيث إنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بيَّنَ في نصوص الكتاب على أنَّ الأمرَ لا يتوقَّفُ على أنَّ الإنسانَ يعتقدُ أنَّ الله واحدٌ في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ثم يذهبُ ويستغيثُ بغير الله، أو يستجيرُ بغير الله، ويصرفُ ما لله لغير الله.

التَّوْحِيدُ لا بد فيه من الأمرين، وهما - كما قال العلماء - ركنان لا يمكنُ أن يتحقَّقَ التَّوْحِيدُ إلا بهما. وهذا التَّرتيبُ العجيبُ البديعُ من الإمام المصنِّف -رَحِمَهُ اللهُ- يدلُّ على سموِّ منهجه في ترتيب آيات القرآن، فأيةُ الأنعام: هي في ترتيب المصحف - كما قدَّمنا - مقدَّمةٌ على آية الإسراء: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ}، لكنه راعى -رَحِمَهُ اللهُ- بتقديم المؤخَّر، وتأخير المقدَّم، التَّرتيبُ الذي يدلُّ على معنى، ولذلك (كتابُ التَّوْحِيدِ) كتابٌ عظيمٌ، والإمامُ المجدِّدُ -رَحِمَهُ اللهُ- لم يكتفِ فيه بانتقاء آيات الكتاب العزيز الدالة على حقِّ الله على عباده في توحيده، وإنما اعتنى بترتيبها، وصياغتها صياغة العالم الدقيق.

وما من طالب علمٍ ولا عالمٍ يمعنُ النَّظَرَ في هذه الآيات وسردها، وكيف راعى -رَحِمَهُ اللهُ- دلالتها إلا ويخرجُ بكثيرٍ من الفوائد التي ينبغي أن يستفيدَها من هذا السِّفر المبارك.

ذكر -رَحِمَهُ اللهُ- آيةُ الأنعام، وهذه الآيةُ اشتملت على المحرِّمات، وأجمع العلماء على أنَّ أعظمَ المحرِّمات وأشدَّها ضررًا وأعظمَها خطرًا على العباد سببًا في هلاكهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم: أن يشركوا بالله شيئًا، أيًا كان هذا الشيء، {شَيْئًا}: نكرةٌ تشملُ القليلَ والكثيرَ، ومعنى ذلك: أنَّ التَّوْحِيدَ هو الإخلاصُ والخلوصُ لله، وإفرادُ الله بحقه خالصًا مخلصًا من الشوائب.

وهذا التَّرتيبُ منه -رَحِمَهُ اللهُ- يدلُّ على أمرٍ قصده في بداية الكتاب، فهو -رَحِمَهُ اللهُ- لما ذكر آية: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ}، وكذلك أيضًا أتبعها -رَحِمَهُ اللهُ- بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، ثم أتبعها بآية: {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، ثم أتبعها بآية: {قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}؛ لأنَّ أوَّلَ ما يكونُ هو خلقُ الخلق، فإذا خلِّقوا احتاجوا إلى من يدهم على الحقِّ والهدى، ثم إذا ذُلُّوا على الحقِّ والهدى بُيِّنَت هذه الحقوق إذا أُرسِلَ إليهم من يدهم على الحقِّ والهدى، فإنَّ الرِّسُولَ يقومُ ببيان ما هي هذه الحقوق التي ينبغي أن يقوموا بها لله ولخلقه.

فبدأ أولاً: بخلق الخلق بقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. فإذا خُلِقَ الخلق بَيَّنَّ أنهم خُلِقُوا من أجل التوحيد، ثم بَيَّنَّ أَنَّ الخلق أشدُّ ما يكونون حاجةً إلى رسالات الرسل حتى يدُلُّوهم إلى الحق، فجاء بآية: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، التوحيد والنهي عن الشرك.

ثم لما جاءت الرسل أنه بعث الله في كل أمة رسولا بهذا الأصل، جاء بيان الحقوق والواجبات. فإذا به يرتب بحسب الوجود، فإذا كان التوحيد هو المقصود من الخلق، وهو الذي أُرسلت به الرسل، وهو أوَّل الحقوق، والشرك أوَّل المحرمات، فهَمَّ الموفق أن أمر التوحيد هو أعظم الأشياء كلها، فمن أجله خُلِقَ الخلق، ومن أجله أُرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وأنه مقدَّم في الحقوق على جميع الحقوق، وأنَّ ضده مقدَّم على جميع المحرمات والمنهيات، عندها يعلم معنى التوحيد، وأهمية التوحيد. وهذا من الإمام المصنِّف -رَحِمَهُ اللهُ- أبلغ من خطبة الكتاب، أبلغ من أن يكتب خطبةً في مقدمة كتابه، فترتيبه للآيات هذا الترتيب البديع بَيَّنَّ فيه لمن يفقه ويعلم هذه المعاني الجليلة التي يفهمها العلماء وطلبة العلم، ويدركون منها أهمية التوحيد.

فإذا أوَّل ما يُستفتح به في بيان التوحيد بيان أهميته، وإذا بُيِّنَت أهمية التوحيد فقد عرَّف بالتوحيد، عرَّف أنه الحقُّ العظيم لله، وأنَّ هذا الحق لا تشوبه الشوائب، وأنه هو المقصود من خلق الخلق، وأنه من أجله أُرسلت الرسل، ومن أجله أنزلت الكتب، وأنه في بيانات الرسل وكتبهم قُدِّم على جميع الحقوق، والنهي عن ضده قُدِّم على جميع المنهيات.

{قُلْ تَعَالَوْا}: أقبِلوا، {أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}: هذا في التحريم والمنهيات. وهناك حينما قال: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} في الحقوق والواجبات. فأصبح في قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} بيان لخطر وعظم شأن الإشراك بالله، خطره على العبد، وأنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لعظم ذنب الشرك قَدَّمَهُ على جميع المنهيات.

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}: (حرَّم) عند العلماء هي الصِّيغَةُ الصَّرِيحَةُ في التحريم، يعني الصِّيغَةُ التي لا تحتمل معنى آخر، لو قال الله في كتابه: (لا تفعلوا)، أو قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا تفعلوا) فهذه صيغة نهي، لكنها تحتمل التحريم، وتحتمل الكراهة، لكن إذا قال: (حرَّمت، حرَّمت عليكم، حرَّمتنا) فهذه صيغة لا تحتمل أي معنى غير التحريم، ولذلك نهي عن الشرك بأوضح الكلمات، وأوضح الجمل والعبارات التي لا تحتمل معنى آخر.

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، {شَيْئًا}: نكرة، أيًا كان هذا الشيء، سواء كان نبياً مرسلًا أو ملكاً مقرباً أو ولياً أو بقرة أو قبراً أو حجرًا، أيًا كان هذا الشيء، لا تجعله ندًا لله، ولا تساويه بالله، ويكون ذلك حينما يصرف العبد ما لله لغير الله. {لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}: كلُّ من سمع هذه الآية فقد قامت عليه الحجة، واستبان له المحجة، أن الله لا يرضى أن يصرف حقه لغيره أيًا كان ذلك الغير، وأيًا كان هذا الصرف، على أي وجه كان قليلاً أو كثيراً.

وقوله: [{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآيات]، هنا قال: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، ما قال: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، وهناك: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}؛ لأنَّ هناك ذكر الوالدين؛ لكي يُنبَّه على أنَّ حقَّ الله مقدَّم على حقِّ الوالدين، وإذا قُدِّم على حقِّ الوالدين فإنه مقدَّم على حقوق العباد كلِّها؛ لأنه ليس هناك حقُّ أعظم من حقِّ الوالدين في المخلوقين.

أمَّا هنا في المنهيات قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، فاقصر على النهي، ولم يذكر أمراً؛ لأنَّ برَّ الوالدين من الأوامر؛ فدلَّ على أنه هنا في صدد المنهيات، والتَّوحيد يقوم على الإثبات ببيان الحقِّ الواجب، والنفي ببيان الأمر المحرَّم وهو الشِّرك، وهنا بيَّن فقط: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، ما ذكر شيئاً آخر مما ذكرته الآية الكريمة.

((قال ابن مسعود -رضي الله عنه-)): هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، ينتهي نسبه إلى مدركة بن إلياس، هذا الصحابيُّ الجليل صاحب السِّوادين والتَّعْلِينِ، وصاحبُ الهجرتين، هاجر مع النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى المدينة، وشهد المشاهدَ كلِّها، ولم يتخلَّف عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في شيءٍ منها.

أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود، الكُنَيْفُ الذي مُلِئَ علماً، صاحبُ السِّوادين، أذن له النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يسمع سرَّه، وما أذن لصحابيٍّ وما بلغ صحابيٍّ هذه المنزلة، فكان يدخلُ على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من دون استئذانٍ، وكان يسمع حديثَ النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع أهله وزوجه حتى ينهاه رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، مقامٌ ما بلغه أحدٌ، لكنه منقبة لا تفضُّله على أبي بكرٍ وعمر ممن له المقام الأسنى والأعلى، فورودُ الفضيلة الخاصة لا يستلزمُ التَّفضيلَ العامَّ.

هذا الصحابي الجليل جمع القرآن في عهد رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، واستمع إليه النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو يتلو كتابه في مسجده، وقال: ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ الْقُرْآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا نَزَلَ فَلْيَقْرَأْهُ بِقِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ))، وقال أبو موسى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: ((وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُحْفُوظُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ ابْنَ أُمِّ عَبْدِ هُوَ أَقْرَبُهُمْ زَلْفَى، وَأَشْبَهُهُمْ سَمْتًا وَدَلًّا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)).

هذا الصحابي الجليل كان من علماء الصحابة، ومن كبار المفتين منهم، وهنا ندرك أنَّ اختيار الإمام المصنّف - رَحِمَهُ اللَّهُ - لكلام عبد الله بن مسعود ميزةً يمتاز بها هذا الكتاب، وهو العناية بأقوال السلف الصالح لهذه الأمة ومن علماء الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ -.

يقول - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ وَجَعَلَ أَعْيَالِي الْفِرْدَوْسِ مَسْكَنَهُ وَمَثْوَاهُ -: ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ))، ((مَنْ أَرَادَ))، مَن أَحَبَّ، ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ))، الوصية: هي عهد، وهذا العهد له ميزة، فإذا قيل: (وصى) ليس كما لو قيل: (أمر)، وإذا قيل: (وصى) فقد عهد، وتكون الوصايا مسندة لما بعد الموت، فيوصي الإنسان بأمر ما بعد موته، ولذلك قال تعالى: {مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ}، فالوصية: هي إسناد الأمر بعد الوفاة، وغالبًا تكون بالأمر المهم، والأمر الذي له شأن.

فأراد هذا الصحابي الجليل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - بهذا الأسلوب أن يحثَّ ويحضَّ كلَّ من يسمع هذا الأثر عنه أن يهتمَّ ويعتني.

((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ)): إذا قيل: إِنَّ الوصية محتومة، فمعناها: أنها لم تَمْسَ ولم تتغيَّر؛ لأنها إذا فُتِحَتْ يَزَالُ الحَتْمُ، وَيَزَالُ الحَافِظُ لَهَا، وَحِينَئِذٍ لَا تَكُونُ كَالَّتِي حُفِظَتْ وَمُهِرَتْ.

فالوصية التي عليها خاتم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قصد بهذه الجملة أن يبيِّن أنها مما عهد به النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فلم يتغيَّر ولم يتبدَّل.

((عليها خاتم)): لأنَّ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان له خاتم يختُم به كتبه إلى ملوك الأرض، أراد أن يبعث إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام كما في الصحيح، فقالوا له: إنهم لا يقرأون الكتاب إلا إذا كان محتومًا، فاتخذ خاتمًا، كما في صحيح البخاري ثلاثة أسطر: (محمد) سطر، و(رسول) سطر، و(الله) سطر، وختم به كتبه - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -

ومرادُه هنا: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ليس مراده الوصية الحقيقية التي عليها الختم، إنما أراد المعنى، وحقيقة هذه وصية الله قبل أن تكون وصية نبيه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لما ذكره هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام ختمها بقوله: **{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}**، **{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}**، **{ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**، ثلاث آيات: الأولى: خُتِمَتْ **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**، والثانية: **{لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}**، والثالثة: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**؛ لأنَّ أَوَّلَ ما يكونُ من فهم الإنسان فإنه يحتاج إلى عقل يفهم به، فقال: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**، ومن رزقه الله العقل ونظر في الدلائل على توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يشكُّ أَنَّ الحقَّ في توحيدِهِ سبحانه وإفراده بالعبادة، فقال: **{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**.

ثم ختم الثانية بقوله: **{لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}**، قال الأئمة - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -: لأنهم إذا عقلوا تذكروا فوصلوا إلى الذِّكْرَى، ومن وصل إلى الذِّكْرَى وصل إلى الخوف من الله، فأصبح من عباده المتقين، اللهم اجعلنا منهم، اللهم اجعلنا منهم.

إِذَا الْعَقْلُ، ولذلك قال الله عن المشركين: **{هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا}**، وإلا كيف يعبدوا شيئاً من دون الله، والدلائلُ منثورةٌ أمام عينه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته ومن خلفه، بل حتى في جسده تدلُّه على أنه لا إله إلا الله، فعطلَّ العقلَ بالكُلِّيَّةِ، **{هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا}**، ذرأهم الله لجهنم، فعطلُّوا العقولَ، فإذا رُزِقَ الإنسانُ العقلَ وأعمله رُزِقَ الذِّكْرَى، ولذلك كلُّ من يجلسُ في مجالس الذِّكْرَى وكلُّ من يسمعُ آيات القرآن وأحاديث النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعقله معه، فإنه ينتفع: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}**، أي لمن كان له قلبٌ وألقى السَّمْعَ وهو شهيدٌ، (أَوْ): بمعنى الواو، **{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى}** أي وأدنى؛ لأنَّ الله لا يشكُّ، **{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** أي ويزيدون.

{لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}: فالقلبُ إذا تحرَّك وانتفع به صاحبه حصل من ورائه الذِّكْرَى، وإذا حصلت الذِّكْرَى لعبد الله الموفق حصلت الرِّهْبَةُ من الله - جَلَّ وَعَلَا - والخوفُ، عبادُ الله الذين يتذكرون، وعبادُ الله الذين انتفعوا بعقولهم هم الذين يتَّقون، فيجتنبون ما حَرَّمَ اللَّهُ عليهم، ويفعلون ما فرض الله لهم، سَبَّاقُونَ إلى فعل الأوامر بتوحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ - واتباع شرعه، منكفئون منزجرون عن النواهي والتي أعظمها الكفرُ والشِّرْكُ بالله.

فختم الله هذه الثلاث آياتٍ بـ {وَصَّاكُمُ}، إذا هذه الآيات هي وصية الله قبل أن تكون وصية نبيه -عليه الصلاة والسلام-، لكن لما كان ما وصى الله به هو وصية النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يتبع ما أمره الله به: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}. والنبي -صلى الله عليه وسلم- ما وصى به الله هو وصية النبي -صلى الله عليه وسلم-.

فبين هذا الصحابي الجليل -رحمه الله- أن هذه الثلاث الآيات وصية من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا ما جعله يصف الثلاث الآيات بكونها محكمة، لماذا؟ كان الصحابة إذا حدثوا بأمر بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يرد عليهم السؤال: هل كان هذا، أي الذي تحدثنا به، هو آخر الأمرين من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أم نُسِخ؟

بعبارة أخرى: هل هو محكم أو منسوخ؟ فقال: إنها وصية، بمعنى أنها باقية إلى يوم القيامة، وأنها محكمة غير منسوخة، فالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك محكم غير منسوخ، باقٍ إلى أن يريث الأرض ومن عليها، وصية عليها خاتمه.

قال -رضي الله عنه-: ((مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- التي عليها خاتمه فَلْيَقْرَأْ: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}، إلى قوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} الآية)).

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا}: قيل {هَذَا}: أي القرآن، {صِرَاطِي}: الصراط: هو الطريق الواسع، {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا} لا اعوجاج فيه، قيل: إنه القرآن، وقيل: إنه هو النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقيل: ما بُعث به من الدين والشريعة، وكلها بمعنى واحد.

فصراط الله المستقيم الذي لا طريق إلى الجنة إلا به هو هذا، أساسه أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً، هذا هو الصراط المستقيم، وهذا الصراط المستقيم وصانا الله من فوق سبع سماوات أن نتبعه، ولا نتبع غيره من السُّبُل، ولذلك خطَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- خطأ كما روى عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وخطَّ عن يمينه خطوطاً، فبين أن الخطَّ هو صراط الله، ثم أشار إلى الخطوط بقوله: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}، السُّبُل: جمع سبيل، والسبيل: هو الطريق، وسمي الطريق طريقاً؛ لأنه يُسمع فيه طرق النعال، وقيل: لأنَّ النَّاسَ يطرقونه حينما يسرون فيه.

هذا الطُّرُق هي قائمة على أحد أمرين، يخرج الإنسان عن صراط الله المستقيم -أعاذنا الله وإياكم من ذلك-: إما بشبهة، أو بشهوة.

الصراط المستقيم لا شبهة فيه، ولا شهوات ملهيات عن فاطر الأرض والسماوات، صراط سالم من الشوائب، فمن اتبع على كل سبيل منها كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- دعاة، وهم شياطين الإنس والجن يجتالون الناس عن هذا السبيل القويم، الناس خلّقوا بالفطرة على التوحيد وعدم الشرك، فالشرك خلاف الفطرة السوية المرضية من الله -جلّ جلاله-، قال -صلى الله عليه وسلم-: ((كُلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة))، فبيّن أنّ الناس يُخلَقون على الفطرة، وقال: ((كُلُّ مولودٍ)) بصيغة العموم، ثم يُخرَج عن هذا الصراط المستقيم بشياطين الإنس والجن، {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}. غُرُورًا.

إمّا شبهة في اعتقاده -والعياذ بالله-، تبدأ بالبدعة، ولذلك قالوا: (البدعة بريء الكفر)، فيبدأ يتساهل في دينه بإحداث ما لم يأذن الله به في الدين من البدع، ويستحسن، ويأتي من يسوّق له ذلك؛ لأنّ جهنّم لها دعاة، وعلى كل باب منها دعاة يدعون إليها -أعاذنا الله وإياكم منهم ومن دعوتهم- يُزَيَّنون ويُسوّلون، فهذه السبل يخرج الإنسان عن صراط المستقيم إلى هذه السبل بهؤلاء الدعاة، فإذا أجابهم: إمّا أن يجيبهم بشهوة، وإمّا أن يجيبهم بشبهة.

فإمّا شبهة -والعياذ بالله- تنطمس بها البصيرة ونور الحق، وإمّا شهوة -والعياذ بالله- تشقيه وترديه. فالله -عزّ وجلّ- أقام الحجّة على عباده، فجعل الصراط المستقيم في كتابه وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام-، من تمسك بهما نجا، ومن اتبع الهدى في غيرهم ضلّ وغوى، فالدين ليس بالآراء، ولا بالأهواء، ولا بما يستحسنه الناس: (بدعة حسنة، وبدعة طيبة)، الدين ما فيه، {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، دين حنيف، ملّة إبراهيم -عليه وعلى نبيّنا وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام-، قيمًا لا اعوجاج فيه، هذا الدين القيم قائم على التوحيد وإخلاص العبادة لله، وتنزيهه -سبحانه وتعالى- عن كل شيء لا يليق به.

يقول سبحانه: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَصَّاكُم} (ذلكم) في لغة العرب: تقول: (ذا، وذاك، وذلك)، قيل: تشير إلى أنه أمر عظيم، (ذلكم)، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}، ما قال: (هذا الكتاب لا ريب فيه)، {ذَلِكَ}: إشارة إلى العلوّ، فهي وصايا عظيمة، ومن أقامها وخرج من هذه الدنيا يوم يخرج وهو مؤفّق لله بهذه الحقوق، خرج من الدنيا ونزعت روحه من جسده لم يشرك بالله شيئًا، فإنه قد هُدي إلى الصراط المستقيم، ويُحشَر يوم القيامة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحبه -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

الدِّينُ لا يكونُ بالتَّشْهِي، ولا بالتَّسْمِي، ولا بالتَّمْنِي، يقومُ بتحقيق الحقِّ، وهو توحيدُ الله وإفراده بالعبادة، ولو ادَّعى الإنسانُ مهما ادَّعى أنه مسلمٌ، وقد صرف حقَّ الله لغير الله، فلن تنفعه هذه الدَّعوة.

الدِّينُ يحتاجُ إلى عملٍ، ولذلك هي وصايا تحتاجُ إلى فعلٍ، وإلى عملٍ.

هذه الوصايا الثلاثُ قال رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوماً لأصحابه: أنه من وثَّق، مَنْ يبايعني، أي على هذه الثلاث الآيات من سورة الأنعام، وفي بما بايع وعاهد عليه رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإنه يضمنُ عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- له حُسْنَ العاقبة والمال، هي عهدٌ، هذه الوصايا من أقامها وحقَّقها، عبد الله، ولم يشرك به شيئاً، وأقام الصلاة، وآتى الزَّكاة، وقام بالحقوق، فإنَّ له هذا المقامَ الكريمَ عند الله، أنه يكونُ من أهل السَّعادة، وأنَّ الله يوفِّي له بدخول الجنة.

إذاً هذا العهدُ وهذه الوصيةُ المرادُ بها العملُ والتَّطبيقُ، {ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، {ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، {ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، اللهم اجعلنا من المدكرين، واجعلنا من العاقلين ومن المدكرين، واجعلنا من أهل التَّقوى يا ربَّ العالمين.

[وعن معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه - قال: ((كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا)) أَخْرَجَهُ فِي الصَّحِيحِينَ].

الشرح:

((عن معاذ بن جبل)): أبو عبد الرحمن، معاذ بن جبل، صاحبُ الفقه والعمل، القارئُ القانتُ العابدُ الثَّابِتُ، أسلم وهو في الثامنة عشرة من عمره - رضي الله عنه وأرضاهُ وجعلَ أعالي الفردوس مسكنه ومثواه -، وشهد المشاهدَ كُلَّهَا مع رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم -، شهد بدرًا: ((وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)).

وشهد العقبة، فبايع النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - تحت الشجرة، وقد قال - صَلَّى الله عليه وسلم -: ((لَنْ يَلْجِ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)).

ثَوْبِي - رضي الله عنه وأرضاهُ - في طاعون عمواس في السنة الثامنة عشرة من الهجرة إِبَّانَ خلافة عمر - رضي الله عنه وأرضاهُ -.

كان من علماء الصحابة، وهو أحدُ الأربعة الذين جمعوا القرآنَ على عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم -، وكان - رضي الله عنه وأرضاهُ - إمامًا في العلم والعمل، ولذلك أمره النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - بعد فتح مكة أن يبقى بمكة، يُعَلِّمُ أَهْلَ مَكَّةَ الشَّرَائِعَ، شرائع الإسلام، وكذلك أيضًا بعثه في آخر حياته - بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إلى اليمن، وأمره أن يُعَلِّمَ أَهْلَ الْيَمَنِ التَّوْحِيدَ وشرائع الإسلام، ومقامه - رضي الله عنه - عظيم، وكان جامعًا بين العلم والعمل والعبادة، وهذا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَرَّفَنَا بِهِ - رضي الله عنه وأرضاهُ -، واختار المصنِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - هذا الحديث من روايته، وهو حديثٌ عظيمٌ يدلُّ على أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ لِلَّهِ، فالمصنِّفُ الإمامُ المجدِّدُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذكر الآياتِ المتقدمة، وقد عَرَفْتُ بالتوحيد، وقد قال - رَحِمَهُ اللَّهُ - [كتابُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ] - رَحِمَهُ اللَّهُ

عَلَيْهِ-، مِمَّا يُلَاحِظُ وَتُلَاحِظُ فِي عِلْمِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ الْإِمَامِ الْمُجَدِّدِ: مَا يَذْكُرُ شَيْئًا إِلَّا وَيَذْكُرُ دَلِيلَهُ، فَهُوَ قَالَ: [كِتَابُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ].

وهنا في حديث معاذٍ: ((أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)): هُوَ التَّوْحِيدُ، فَإِذَا عَرَّفَ بِالتَّوْحِيدِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ خُلُقِ الْخَلْقِ، إِذَا هُوَ الْحِكْمَةُ مِنْ إِيجَادِ الْخَلْقِ، وَعَرَّفَ بِالتَّوْحِيدِ أَنَّهُ أَوَّلُ الْوَاجِبَاتِ أَمْرًا، وَأَنَّ ضِدَّهُ الشِّرْكَ أَوَّلُ الْحَرَمَاتِ نَهْيًا، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ مَجْمُوعَ هَذَا الْأَمْرِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ حَقُّ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، إِذَا كَانَ حَقًّا لِلَّهِ فَصَرْفُهُ لغيرِ اللَّهِ ظُلْمٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ لِقَمَانٍ لَابْنِهِ: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، مَا قَالَ: (ظَلَمَ)، {لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وَالظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غيرِ مَوْضِعِهِ، وَصَرَفُ الْحَقِّ عَنْ أَهْلِهِ، فَاللَّهُ هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ، وَتَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ هُوَ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ الْخُصُومَةُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَقَوْمِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي اعْتَنَى بِهِ الْإِمَامُ الْمُجَدِّدُ.

فَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- وَرَسُولُهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ اللَّهِ بِهَذَا الْحَقِّ، فَإِذَا كَانَ حَقًّا فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ صَرْفُهُ لِغَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْذِنْ اللَّهُ بِصَرْفِ حَقِّهِ لِغَيْرِهِ، لَمْ يَأْذِنْ بِصَرْفِهِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَلَا لِلرُّسُلِ، فَكَيْفَ بِالْأَوْلِيَاءِ؟! وَكَيْفَ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَحْجَارِ وَالْأَبْقَارِ؟! وَمِنْ هُنَا، جَاءَ الْحَدِيثُ وَاصِفًا لِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ أَنَّهُ حَقٌّ مُسْتَحَقٌّ لِلَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ- فَقَالَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: ((كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)): فَهَنِيئًا لَهُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ وَالْمَكَانَةُ، أَنْ يَكُونَ بِصَحْبَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَعَهُ عَلَى دَابَّتِهِ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا.

وَهَذَا الصَّحَابِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مِيزَةُ الصَّحَابَةِ فِي الْأَحَادِيثِ، وَهَذِهِ أُمُورٌ لِمَاذَا نُعَرِّجُ عَلَيْهَا؟ لِأَنَّهُ صَارَ مِنْ يَنْتَقِصُ الصَّحَابَةَ، وَالصَّحَابَةُ حَفَظُوا لَنَا دِينَ اللَّهِ، وَحَفَظُوا لَنَا شَرَعَ اللَّهِ، وَذَلِكَ بِحِفْظِ السَّنَةِ، وَمَا قَالَه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَمَا فَعَلَهُ، وَتَقَرِيرَاتِهِ، وَجَمِيعَ شَأْنُونِهِ، فَأَتُونَا وَنَقْلُوا لَنَا حَالَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَتَّى وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى الْحِمَارِ، اللَّهُ أَكْبَرُ! دِينَ مَا ضَاعَ فِيهِ شَيْءٌ حَتَّى وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى الْحِمَارِ تُذَكَّرُ صِفَتُهُ: مَتَى تَكَلَّمَ؟ وَكَيْفَ كَانَ حَالُهُ لَمَّا تَكَلَّمَ؟ اعْتَرَّ بِدِينِكَ، وَاتْرَكَ عَنْكَ الْهَرَاءَ، وَاتْرَكَ عَنْكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَاتْرَكَ عَنْكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ، أَنْتَ بِسُمْؤٍ فَكَّرَ وَفَهَمَكَ تَنْظُرٌ إِلَى أُمَّةٍ حَفَظَتْ لَكَ دِينَ رَبِّكَ حَتَّى فِي أَدَقِّ التَّفَاصِيلِ، تَقَاسِيمُ وَجْهِهِ: ((دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَبَرَّقَ أَسَارِيرَ وَجْهِهِ مِنَ الْفَرَحِ))، حَتَّى وَجْهِهِ لَمَّا يَتَغَيَّرُ حَفَظُوهُ، اللَّهُمَّ اجْزِهِمْ عَنَّا وَعَنْ نَبِيِّكَ وَعَنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَيْرَ مَا جَزَيْتَ صَحَابِيًّا عَنْ صَحْبَتِهِ.

ليس هناك أحدٌ صحب نبياً أفضل من صحابة نبيك -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، و-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ-، تعتزُّ، عقيدة؛ لأنك تعلم أنه متى ما مسَّت حرمة هؤلاء فقد مسَّ الدِّينَ؛ لأنهم هم الذين حفظوا لك الدِّينَ، فانظر كيف حفظوا الدِّينَ حتى في حال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو يتكلَّمُ، ((كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-))، الرَّدِيفُ: الذي يكونُ خلفَ الراكب الذي يقودُ الدَّابَّةَ، ((كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)): أردف على الدَّابَّة -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، يقفُ على الدَّابَّة لوحده، ويسيرُ على الدَّابَّة لوحده، ويسيرُ مردفاً غيره، فأردف أسامة بن زيد لما دفع من عرفاتٍ إلى مزدلفة، وأردف الفضل بن العباس لما دفع من مزدلفة إلى منى -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وأردف أبا ذرٍّ حينما قال له: ((أتدري يا أبا ذرٍّ أين تذهب هذه الشمس؟ قال: قُلْتُ: الله ورسوله أعلم، قال: إنها تذهب فتغيب في عين حمئة)) كما في مسند أحمد، فأردف -عليه الصلاة والسلام- على الدَّابَّة.

هذا الحمارُ يقال له: يعفور، قيل: أهداه المقوقس إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هو والبغلة الشَّهباء التي كانت له -عليه الصلاة والسلام-، فتسمَّى الدَّواب، والعربُ تُسمِّي الدَّواب، ولذلك يقولون: (ناقته القصواء، ودابته وبغلته الشَّهباء، وحماره يعفور)، هذه يسمون الدَّواب بأسماء، منها هذا الحمار، كان اسمه يعفور، في رواية لأحمد: أنه لما ركبنا على الحمار صرَّ الحمار، ما تحمَّل الاثنين، فضحك النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثم ركبنا فحصل ما حصل، ثم في الثالثة ضربه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فسار بهما -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فركبنا على الحمار.

في بعض الروايات كما في الصحيح: ((ليس بيني وبينه إلا كمؤخرة، أو مؤخرة، ومؤخرة الرِّحْلِ))، كلُّها لغاتٌ، وهي التي تكونُ في آخر الرِّحْلِ تمنع الرَّاكِب من السُّقُوط، أي لم يكن بيني وبينه إلا شيء يسيرٌ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، إشارةً إلى القرب، وأنه كان يسمعُ ماذا يقوله -عليه الصلاة والسلام-.

والإردافُ حصل منه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فبيَّن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لهذا الصَّحابي، وأردف ابنُ عباسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- حينما قال له: ((ألا أعلمك كلماتٍ ينفعك الله بهن؟))، كان رديفاً له، فهنا أشار معاذٌ إلى القرب، فقال: ((ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرِّحْلِ، أو مؤخرة الرِّحْلِ)).

((فقال لي: يا معاذُ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟)) ابتداءً بحقِّ الله؛ لأنه أعظمُ من حقِّ غيره، ((أتدري)): سؤالٌ، وإلقاءُ السُّؤال في مجالس العلم يُشَوِّق، وهكذا في كتب العلم، أو عند عرض القصَّة،

أو عرض الشيء، هذا أسلوب الكتاب والسنة: {الحاقّة* ما الحاقّة}، اشتاق الإنسان يقول: ما هي الحاقّة؟ هذا أسلوب تشويقي، وهذا نوع من السُمُو في الخطاب، فكان النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحياناً يبادر بالحكم، وأحياناً يُشَوِّقُ إلى معرفة الحكم، وهذا يدلُّ على أنَّ الدَّاعِيَةَ وإذا جئْتَ مع الكبير أو الصَّغير حتى مع ابنك إذا أردتَ أن تُعَلِّمَهُ تستخدمُ الأسلوبَ الذي يُشَوِّقُهُ إلى سماع كلامك، وإلى معرفة ما تريدُ أن تخبره به بأسلوب السؤال. ((أندري ما حقُّ الله على العباد؟)): ابتداءً بحقِّ الله قبل حقِّ غيره.

((وما حقُّ العبادِ على الله)): في بعض الروايات قال: ((يا معاذُ، قُلْتُ: لبيك وسعديك، قال: يا معاذُ، قُلْتُ: لبيك وسعديك، قال: يا معاذُ، قُلْتُ: لبيك وسعديك))، ثلاث مرَّاتٍ، معناه: أنَّ الأمرَ عظيمٌ، هذا إن دلَّ على شيءٍ، وُفِّقَ الإمامُ المجدِّدُ باختيار هذا الحديث؛ لأنه إن دلَّ على شيءٍ، فانظر كيف النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما أرد أن يُبيِّنَ حقَّ الله وتوحيدَ الله، كيف استخدم هذه الأساليب التي لها وقعٌ عظيمٌ، خاصة في معاذٍ الذي كان من علماء الصحابة، وأخبر النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((أَنَّهُ يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلَمَاءِ رَتْوَةً))، يعني يتقدَّمهم وأمامهم، وهذه منزلةٌ عظيمةٌ له، فأراد أن يُعَلِّمَهُ هذا الحقَّ بهذا الأسلوب: ((يا معاذُ، يا معاذُ، يا معاذُ))، معناه: أنَّ الأمرَ عظيمٌ، فاشتاق معاذُ، ثم لم يقتصر الأمرُ على النداء، حتى أتبعه بالسؤال: ((أندري ما حقُّ الله على العباد؟))، عندها أدرك معاذُ أنَّ النداء ثلاثاً إنما هو لأمرٍ هو الأمرُ.

((أندري ما حقُّ الله على العباد؟)): فرقٌ بين أن تأتي وتقول: (يا فلانُ، إنَّ حقَّ الله على العباد كذا وكذا)، لكن تقول: (يا فلانُ، قال: لبيك، يا فلانُ، قال: لبيك)، ولمن؟ لرجلٍ من علماء الصحابة يعلم ويفقه، وليس بجاهلٍ ولا غيبيٍّ، وإنما هو على الفهم السَّوِيَّ، يُكْرِرُ له النداء ثلاثاً، قال: ((قُلْتُ: لبيك وسعديك))، وفي الثالثة قال: ((أندري ما حقُّ الله على العباد؟)).

((وما حقُّ العبادِ على الله؟)): هذا سؤالٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا خرج من الدنيا وقد أدَّى حقَّ الله وحقَّ خلقه فقد نجا وأفلح، والله -عَزَّ وَجَلَّ- نَبَّهَ العبادَ على حقوق بعضهم على بعضٍ. وفي هذا الحديث بيَّنَ حقَّه على العباد، وحقَّ العباد عليه، وإن كان هو سبحانه ليس للعباد عليه حقٌّ مستحقٌّ، ولكنه حقٌّ بالإيجاب لا بالاستحقاق؛ لأنَّ الله لا يُسْتَحَقُّ عليه الحقُّ، حقُّ الفضل والمنَّة أوجبه على نفسه.

((قُلْتُ: اللَّهُ ورسوله أعلم)): هذا فيه دليل على الأدب مع مَنْ له حقٌّ، فالنبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان بالإمكان أن يقول معاذٌ: (حقُّ الله على العباد أن يعبدوه)، لكن لما وجد النبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يسأله بهذا تلطّف في الجواب وقال: ((قُلْتُ: اللَّهُ ورسوله أعلم))، هذا في حياته -عليه الصلاة والسلام-، أمّا بعد وفاته، فيُقال: (اللَّهُ أعلم).

في حياته يُقال: (اللَّهُ ورسوله أعلم -صَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-)، وأمّا بعد وفاته -عليه الصلاة والسلام- فيُقال في المسائل: (اللَّهُ أعلم)، إذا سئلت تقول: (اللَّهُ أعلم).

والنبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- علّمه الله، وآتاه العلم -صَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، ولكن أدبًا مع الله يُقال: (اللَّهُ أعلم)، ولما سأله قال: ((اللَّهُ ورسوله أعلم))، هذا أدبٌ من معاذٍ مع رسول الأمة -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

((قال: فَإِنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً))، ((فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه)): هذا الإثبات، ((ولا يُشركوا به شيئاً)): هذا النفي، وهما ركننا شهادة التوحيد.

قال: ((حقُّ الله على العباد))، وقد بيّن الله هذا الحقّ كما قدّمنا، ونصوصُ الكتاب والسنة لن تقلّب صفحةً في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- حتى قال العلماء: (القرآن قسمٌ واحدٌ، وهو التَّوحيد)؛ لأنَّ من قسمه إلى التَّوحيد، وإلى الأحكام، وإلى القصص؛ قالوا: لأنَّ القصص والأحكام كلّها راجعةٌ إلى التَّوحيد، فشرائعُ الإسلام هي شرائعُ الإسلام، وهي تحقيقٌ لمعنى قول: (لا إله إلا الله)؛ لأنَّ الإسلام هو الاستسلام والانقياد لله بالطاعة، والخلوص له من الشِّرك -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فبيّن -صَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- حقَّ الله بقوله: ((فإنَّ حقَّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً))، ((أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً)): وهذا توحيدُ العبادة ((أن يعبدوه، ولا يُشركوا به شيئاً))، وتوحيدُ العبادة: أن يكونَ العبدُ موحِّدًا لربه بأفعاله، فيستغيثُ بالله، ويستجيرُ بالله، ويستعينُ بالله، ويدبُّحُ لله، وينذرُ لله، ويحلفُ بالله، كلّ هذه حقوقُ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ويعتقدُ أنَّ ما كان لله لا يشاركه به غيره، أنه لا يُصرفُ لأحدٍ سواه كائنًا من كان، فلا يأتي إلى وليٍّ يقولُ له: (اشفني)، فالنبيّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: ((اشْفِ؛ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك))، ما معنى هذا الكلام في الرُّقية؟ ((اللَّهُمَّ ربَّ النَّاسِ، اشفِ؛ أنت الشافي))، معناه: أنَّ غيرك لا يشفي، ((لا شفاء إلا شفاؤك))، وهذا يأتي ويقولُ للوليّ: (اشفني)، ويأتي إلى مخلوقٍ لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ويقولُ: (أنا داخلٌ عليك أن تشفي ولدي، أو تشفي مريضِي)، الطبيبُ يقومُ بعلمِ الطِّبِّ بالشفاء إن كتب الله كما

قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً))، فإذا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرِيءٌ بإذن الله، هذا سببٌ، لكن مَنْ يشفي حقيقةً هو مَنْ؟ هو الله، ولا يقدرُ على الشِّفاء إلا الله، فإذا جاء إلى مقبورٍ وإلى ميِّتٍ، ولو كان من كان، ملكًا أو نبيًّا، أو حتى أيًّا كان هذا، ويقولُ له: (قد أتيتك بمريضٍ، أسألك أن تشفيه)، ما معنى هذا؟ معناه: -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- صرفَ حقِّ الله لغير الله، وجعلَ مع الله نَدًّا آخر، يعتقدُ أنه كما أنَّ الله يشفي هو يشفي، بل إنَّ بعضهم -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- ربما اعتقد في القبر أكثر مما يعتقد في الله، ولربما لو قيل لأحدهم: (احلف بالله)، يحلفُ الأيمانَ المكرَّرة، لكن لو قُلْتُ له: (احلف بفلانٍ)، لا يمكنُ أن يحلفَ، أعوذُ بالله، نسألُ الله السَّلامَةَ والعافية، غاية الضَّلال في صرف حقِّ الله لغير الله، جميعُ الحقوق التي هي لله -عَزَّ وَجَلَّ- تُؤدَّى خالصةً، حقُّ الله مستحقٌّ.

((وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))، ((حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ)): الحقُّ دائمًا يكونُ من الأعلى على الأدنى، وبالحقِّ يكونُ له مقامٌ على الذي عليه الحقُّ، هذا لا يمكنُ أن يكونَ مع الله بحالٍ مع خلقه، ولذلك ليس لأحدٍ حقٌّ على الله.

فاللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أوجبَ على نفسه، كما أنه حرَّم على نفسه: ((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي))، وأوجبَ على نفسه: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} أي واجبًا، فهو يُوجبُ على نفسه، لا يُسألُ عمَّا يفعلُ، ويحكمُ ولا مُعقَّبَ لحكمه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فإذا حرَّم على نفسه أو أوجب، هذا إيجابٌ منه على نفسه، لا أنَّ الأمرَ واجبٌ عليه سبحانه، فيقالُ: هو حقٌّ ليس بالاستحقاق، لما يكونُ المخلوقُ له حقٌّ على الله تقولُ: مُسْتَحَقٌّ، هذا توجُّبه بالاستحقاق، لكن حينما يكونُ الله أوجبَ على نفسه تفضُّلاً منه وتكرُّماً، تقولُ: هذا إيجابٌ، أي أوجبَ على نفسه: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} هذا تفضُّلاً منه وكرماً، وإلا فالخلقُ لا يستوجبون عليه أن يرحمهم، هو أعلمُ، وهو أحكمُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وهو العدلُ -جَلَّ جَلَالُهُ-، فليس عليه حقٌّ واجبٌ، وهو سبحانه لم يُضِغْ عملَ العامل، إن عُدِّبُوا بفضله، وإن نُعِمُوا فبعده -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

إذاً عندنا واجبٌ عليه بالاستحقاق، وواجبٌ عليه بالإيجاب، فكونُهُ واجبًا عليه بالاستحقاق هذا محالٌ، ليس بواجبٍ عليه بالاستحقاق، لا المخلوقُ، ولا غيره، لا أحدٌ يستحقُّ على الله، وإنما هو واجبٌ عليه بالإيجاب، أي أوجبَ على نفسه، والله يحكمُ، يوجبُ على نفسه، يحرمُ على نفسه، يكتبُ على نفسه: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}، وهذا هو مذهبُ أهل السُّنَّة والجماعة، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: أنه واجبٌ مُستحقٌّ.

فالمقصود: أن هذا فضل من الله تفضل به لعباده - سبحانه وتعالى -.

((وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))، ((أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)): وهذا - كما قلنا - حق إيجاب، وليس استحقاق؛ لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - تفضل به على خلقه سبحانه.

((فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَبَّرُوا)): خصَّ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - معاذًا بهذا الأمر وبهذه البشارة، فهذه الأمة مرحومة برحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

ولن يجد الموحِّد من ربه إلا كلَّ خير، ((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ))، مادام أن هناك إيمانًا وتوحيدًا فإنه يُبَشِّرُ بكلَّ خير، {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}: الموحِّدين، {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}، (كبيرًا) من الله ليست هينة، لكن متى؟ بالتَّوْحِيدِ، {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}.

أُغْشِيَ عَلَى الْإِمَامِ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَرْبَعُ لَيَالٍ، أصبح مغمى فيها، فلما أفاق في الليلة الأخيرة التي تُوفِّي فيها، قيل: كيف أنت يا أبا عبد الله؟ قال: ((إِنِّي أَرَى الْمَوْتَ، وَلَكِنَّكُمْ))، انظروا إلى هذه الشهادة من إمام من أئمة السلف، وديوان من دواوين العلم، إمام دار الهجرة - رَحِمَهُ اللَّهُ -، قال: ((إِلَّا أَنْكُمْ سَتُعَايِنُونَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَكُمْ عَلَى بَالٍ))، بالتَّوْحِيدِ، بالإيمان، بالإخلاص، تعامل ربًّا في الكمال: في صفاته، في إحسانه، في برِّه، في فضله، في كرمه، ((مَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ رُوحِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ إِسَاءَتَهُ))، الله أكبر! المؤمن الموحِّد، أيُّ مقام؟ أيُّ شرف؟! إذا أدَّتْ حَقَّ اللَّهِ خَالصًا، تُبَشِّرُ بكلَّ خير، {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}، هذا وعد من الله، ولا يخلف الله الميعاد.

ولن تجد أحدًا حاز الأمنَ أكملَ ممن وحَّدَ الله - عَزَّ وَجَلَّ -، التَّوْحِيدُ والقيام بحَقِّ الله هو الخيرُ كُلُّه للعبد في دينه ودنياه وآخرته، والسَّلامَةُ من الشَّرِكِ هي السَّلامَةُ من كلِّ بلاءٍ وشرٍّ في الدِّينِ والدُّنْيَا والآخرة، ولذلك ينبغي للمؤمن أن يُعْنَى بهذا الحقِّ العظيم.

وهذه بشارة من نبيِّ الأُمَّةِ، ((قَالَ: أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَبَّرُوا))، فيه دليل على جواز عدم التحدُّث بمسائل تكون سببًا في فتنه الناس، وهذا معنى قوله - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: ((لَنْ تَحْدِثَ النَّاسَ حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فَتْنَةً لِبَعْضِهِمْ))، فمنعه من الحديث عند الفتنة.

وهنا منعه من الحديث عند وجود الاتكال، وهذا الاتكال بلائ عظيم، ولذلك تجد العصاة المسرفين في المعصية كثيراً ما يتكلمون ويقولون: (ربك غفور رحيم)، والله غفور رحيم، لكنه شديد العقاب، والله ينبغي الأدب معه، والخوف منه، والخجل والوجل، فالتاس يحتاجون إلى أن يزهم الإنسان الموفق بميزان الشرع، فنسأل الله أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.